الحياة اليومية

البيوت:

مساكن العرب متباينة مختلفة. منها البيوت المتنقلة، ومنها المباني المبنية بالمدر أو الحجر، وهي أبنية أهل الحضر. وهي مختلفة أيضاً في طرازها المعماري وفي سعتها ومادتها ويكون اختلافها باختلاف مكانها وباختلاف مكانة صاحبها، ومنزلته من حيث الغنى والفقر.

والبيت لفظة تطلق على الصغير من البيوت وعلى الكبير منها. وقد جعل (ابن الكلبي) بيوت العرب ستة: قبة من أدم، ومظلة من شعر، وخباء من صوف، وبجاد من وبر، وخيمة من شجر، وقنة من حجر، وسوط من شعر، وهو أصغرها.

وذكر بعض علماء اللغة أن الخباء بيت صغير من صوف أو شعر، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت، ثم مظلة إذا كبرت عن البيت. وهي تسمى بيتاً أيضاً إذاً كان ضخماً مزوقاً.

وقد اشتهر (بنو قيدار) بخيمهم المصنوعة من شعر الماعز. وهم رعاة في الغالب يعيشون على الرعي، ولذا اتخذوا بيوتهم من شعر الماعز، فصارت ذات لون أسود. وأصحاب الخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف، هم من الأعراب أصحاب الماشية، الذين يعيشون في مواضع تكثر فيها الأمطار وتكون غير بعيدة عن المدن والقرى ومواضع الماء، ولذلك يعيشون في الغالب على الرعي.

وفي سعة الخيمة دلالة على منزلة صاحبها ومكانته وثرائه. ولذلك يفتخر العزيز منهم بسعة بيته، أي خيمته. وقد تقطع الخيمة بقاطع، يقسمها إلى قسمين: قسم للحريم، أي للنساء والسكن، لا يدخله غريب. وقسم يكون للرجال والضيوف، يجلسون ويأكلون فيه. ويكون نادياً ومضيفاً يخصص للقادمين ولضيوف صاحب ذلك البيت.

ولسيد القبيلة خيمة كبيرة تكون (مضرب القبيلة)، ومقر السيد الرئيس ونادي القوم. يسمر فيها (رب القبيلة) ويأوي إليها الضيوف. وإليها يلتجئ المحتاج ومن به خاصة إلى الإقراء أو أي حاجة أخرى.

وتضرب للسادات الأشراف والأغنياء قبب خاصة تكون من الأدم. وتعتبر هذه القباب من إمارات التعظيم والتفخيم والامتياز والجاه عند الملوك. ولذلك يعامل من تضرب له القبة معاملة خاصة[1].

أما أهل القرى والمدن، أي أهل المدر، وهم المستقرون وشبه المستقرين، فإنهم يقيمون في بيوت ثابتة أو شبه ثابتة. وهي تتفاوت بالطبع منازل ودرجات أصحابها. فقد يكون من خيمة أو من أغصان شجر وعيدان وجريد. وقيل البيت يعمل من الخشب. وقد يكون من طين، ويسقف بجريد أو بأغصان أو بحصير يطيّن أيضاً. ويختلف حجم مثل هذا البيت باختلاف حجم العائلة. وقد يبنى البيت باللبن وهو الغالب، وتكون حالة أصحابها أحسن من حالة أصحاب بيوت الطين.

ويظهر من روايات أهل الأخبار عن البيوت أن في بيوت يثرب بيوت تكونت من طابقين. طابق أرضي وطابق علوي. وكانوا يسكنون الطابقين. ولعلهم كانوا يودعون ماشيتهم ودوابهم الطابق الأرضي، أو في مواضع خاصة بها ملحقة بهذا الطابق.

وكان سادات القرى قد حلوا مشكلة الدفاع عن أنفسهم وعن مواليهم ببناء أبنية حصينة ذات جدران سميكة قالوا لها الحصون والآطام والواحد هو الأطم.

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن قرى الحجاز ومدنها كانت شعاباً، أي أحياءً. تكونت على الطريقة البدوية. وذلك بإقامة كل عشيرة في حي معين من أحياء القرية أو المدينة. وتكون بين الحي عصبية مثل عصبية أفراد القبيلة للقبيلة.

وينتمي الحي إلى القبيلة أو العشيرة التي يرجع إليها، ويتعصب لها. ويشعر أن بين أفراد الحي قرابة ورابطة دم.

وقد يقال للمنزل أو المحلة (الربع) والجمع (الرباع). وذكر أن (الرباع) المنازل وجماعة الناس[2]. فتتألف كل قرية أو مدينة من رباع.

١- جواد علي، ج ٥، ص ٥-٦.

٢- السان، ١٠٢/٨، (صادر)، (ربع).

أثاث البيوت:

ليست لدينا صور واضحة دقيقة عن بيوت أغنياء المدن، وعن محتوياتها وعما فيها من أثاث وأدوات. غير أن بعضاً منها يجب أن يكون واسعاً كبيراً حوى كل وسائل الراحة المتوفرة بالقياس إلى ذلك العهد. فرجل مثل (عبد الله بن جدعان) كان ثرياً ثقيل الثراء، يملك آنية من الذهب والفضة، ويشرب بكؤوس غالية، ويأكل أكلات غريبة، ويتفنن في مأكله، وقد استحضر لذلك طباخين من الخارج من العراق مثلاً، ليطبخوا له طعاماً غريباً عجمياً، أقول إن رجلاً مثل هذا لا بد أن يكون بيته بيتاً كبيراً يتناسب مع ثراء صاحبه وماله وقد بني بناءً محكماً، وأحصنت جدرانه وارتفعت حتى يكون في مستطاعه التحصن فيه وقت الخطر والمحافظة على نفسه من السراق والطامعين في ماله في الليل والنهار. ولا بد أن يكون بيت عبد الله بن جدعان هذا قد بني من أجنحة متعددة، جناح لسكناه مع نسائه، وجناح لقيانه وخادماته وجناح لخدامه وعبيده، وجناح لاستقبال أصحابة وندمائه وأصحاب الحاجات والأشغال، فقد كان يجلس للأصدقاء يتسامر معهم ويسمع معهم غناء قيانه، وعلى رأسهن (الجرادتان)، وهما قينتاه المختارتان، وكان لهما صوتان شجيان، وقد اشتهرتا بمكة، وخلد ذكرهما حتى الآن.

وعاصر ابن جدعان نفر آخر كانوا من أغنياء مكة ومن أصحاب المال والثراء، لهم ذوق في الجمال وحب الشراب. وكان لهم خدم وحشم، ورجال من هذا الطراز لا بد أن تكون بيوتهم حسنة ومن حجارة، وفيها وسائل الراحة، ولها مواضع خاصة بإقامة النساء، وأماكن خاصة باستقبال الضيوف، ومواضع لإقامة الخدم والعبيد. والحيوانات التي يرتبطها للركوب، وحجر لحفظ الأطعمة والأشربة بمقادير كافية احتمالاً لحالات الطوارئ.

وعرفت الزرابي، وهي (الطنافس)، في بيوت أثرياء الجاهليين وقصور الأمراء. وقد ذكرت (الزرابي) و(النمارق) في القرآن الكريم. وورد أن الزرابي ضرب من الثياب محبر، منسوب إلى موضع، وذكرت (الزرابي) في شعر حسان.

وعرف عند الجاهليين نوع خاص من الطنافس قيل له (الرحال)، ذكر أنه من طنافس الحيرة. وإليه أشار الأعشى بقوله:

ومصاب غادية كأن تجارها نشرت عليه برودها ورحالها

وقد استعملت الكراسي والأسرة في بيوت الأغنياء. والكرسي السرير. وأما السرير، فهو ما يجلس عليه وينام فوقه أيضاً وقد عُبِّر به عن الملك والنعمة، والظاهر أن ذلك بسبب كونه من مظاهر الغنى والجاه. و(الخلب) الكرسي قوائمه من حديد.

وقد استورد أهل مكة الأواني الغالية والأثاث الراقي من بلاد الشام، لما عرفت به هذه البلاد من التقدم في الصنعة وحسن الذوق، ولقربها من الحجاز، كما استوردوها من العراق.

أما بيوت الفقراء، فهي كما يظهر من روايات أهل الأخبار، بيوت حقيرة إن جاز إطلاق لفظة (بيت) و(بيوت) عليها. وهي من طين ومن بيوت شعر، لا تقي من برد ولا من حر، لذلك فإن الطبقة الفقيرة عاشت عيشة بؤس وشقاء. وليس في مثل هذه البيوت مرافق صحية ولا مغاسل ولا حمامات فكان أصحابها يقضون حاجاتهم في خارج البيوت. وإذا كان من السهل على الذكور أداء هذا الواجب، فإن ذلك كان من أصعب الأشياء بالنسبة للإناث[1].

وكان السير على الأقدام للوصول إلى المواضع المقصودة هو المألوف عند أكثر الناس، بسبب فقرهم وعدم تمكنهم من امتلاك دابة ركوب. أما المتمكنون منهم، فقد ركبوا الجمال في قطع المسافات البعيدة والأرض الصحراوية، وركبوا الخيل والبغال والحمير في القرى وفي الأرضين التي لا تغلب عليها الطبيعة الصحراوية.

وللقوم آداب في مجالسهم على الإنسان إتباعها ومراعاتها، من ذلك أن لكل بيت مهما كان حجمه أو مكانته حرمة. وأن على كل إنسان صيانة حرمة بيته وبيت غيره سواء بسواء. لأن بيوت الناس هي في الحرمة سواء.

ومن حرمة البيت عدم جواز دخوله إلا بإذن صاحبه. ومن ينتهك حرمة بيت غيره يكون قد قام بإثم كبير وعرض نفسه لانتقام أهل البيت المنتهك منه. وقد يؤدي ذلك

١- جواد علي، ج٥، ص ٢٣-٢٤.

إلى وقوع قتال بنداء العصبية ويتجمع أهل البيت للأخذ بثأرهم ممن ثلب حرمة بيتهم وتطاول عليه، ودنس شرفه، بالإساءة إليه.

ومن آداب البيت الامتناع عن قول الفحش بحضور النساء. وعدم النظر بسوء إلى البنات والنساء، وعدم تركيز النظر عليهن. لأن معنى ذلك توجيه إهانة إلى رب البيت، وإظهار أنه إنما قصد من دخول البيت التمتع برؤية النساء.

والعادة عندهم أنهم إذا زاروا ملكاً أو سيد قبيلة أو عظيماً، لبسوا أحسن ما عندهم من لباس، وتزينوا بأجمل زينة يعرفونها ومنها التكحل والترجيل ولبس جبب الحبرة المكففة بالحرير، كالذي فعله سادات نجران يوم وفدوا على الرسول. والتكحل عادة منتشرة عند جميع الجاهليين رجالاً ونساءً وفي كل جزيرة العرب. كما كانوا يتطيبون بالطيب والعطر[1].

وتفرش أرض سيد القبيلة وذوي اليسار من الناس، وكذلك غرف بيوتهم بالفرش، كالبسط، وتوضع الوسائد في صدر المجلس ليتكئ عليها الجالسون وليتوسدوها عند النوم.

وتحتاج البيوت الكبيرة إلى خدم، لتحضير ما يحتاج البيت إليه من طعام وماء ولتنظيفه وللعناية بدوابه وبما يربط في مرابطه من حيوان. كما يوكل إليهم خدمة الضيوف وتقديم الشراب إلى المتنادمين. وكانوا يستخدمون الخصي لخدمة أهل البيت من النساء، لأنهن محرم، ولا تصح خدمة الرجال لمحارم البيت، ونظراً إلى ضرورة استخدام الرجال في بعض أمور البيت، استعاضوا عنهم باستخدام (الخصي) في هذه الأمور[2].

الحياة الليلية:

والحياة الليلية حياة هادئة على وتيرة واحدة، يأوي الناس إلى بيوتهم مع غروب الشمس في الغالب، أما وجهاء القوم، فقد كانوا يتسامرون في بيوتهم وفي مضاربهم، وذلك بأن يأتي أصدقاؤهم إليهم فيتحدثون معهم ويتذاكرون الأيام الماضية وما يقع من

١- نهاية الأرب ٧٥/١٧.

٢- جواد علي، ج٥، ص ٣٣-٣٤.

أحداث إلى ساعات من الليل ثم يعودون إلى بيوتهم. ويكون السمر في الليل خاصة، والسمر الظلمة. ولهذا كانوا يقسمون بالسمر والقمر. أي بالظلمة والقمر. ثم أطلق السمر على السمر عامة في الليل أو في النهار[1].

وقد صار هذا السمر أساساً للقصص العربي وللأدب العربي والتأريخ الجاهلي. وعلى الرغم من أن طابع السمر، أي القص والتحدث والإنصات إلى المسامر، لا يتفق مع الطابع التأريخي، إلا أنه موّن المؤرخين مع ذلك بشيء من أخبار أيامها ورجالها في صورة من الصور المعروفة عن القص.

ومن ذلك قصص الأيام والأبطال الشجعان الذين ساهموا فيها، وقد يكون المتكلم نفسه ممن شهد الأيام وقاتل فيها. وهذا النوع من السمر، لا يتقيد بالصدق وبالتعقل، كما أن المستمعين لا يهمهم فيه إذا كان معقولاً أو غير معقول. وكل ما يهمه منه هو التلذذ بسماع القصص أو الأشعار أو الأخبار وأمور الشجعان أو غير ذلك. والسمر ألوان وأشكال مختلفة، منه ما يتناول أخبار العالم، كما وصلت إلى البادية، ومنه ما يتناول أخبار الملوك وأخبار سادات القبائل، ومنه ما يتناول الشعر والمناسبات التي قيل فيها الشعر، ومنها ما يتناول الجن والأساطير والخرافات وأمثال ذلك من غريب، قد يبهر لب أذكى الناس، ويلهب في السامعين نيران العواطف، فيجعلهم يقبلون على الاستماع إليه بكل قلوبهم[2].

ويتخذ الملوك والأشراف وذوو اليسر لهم ندماء، يشربون معهم ويقضون وقتهم بالمنادمة. وهم من المقربين إلى الملوك ومن ضيوفهم الذين تكون لهم عندهم مكانة خاصة، وكان من عادة أهل القرى، اتخاذ الندماء، والغالب أن المنادمة تكون على الشراب[3].

ولا بد في المجالس والأندية التي يقصدها الضيوف أو في البيوت من تكريم الرجل بتقديم طيب إليه أو تجميره. ويكون التجمير بمبخرة فيها نار، يرمى عليها شيء من بخور أو مواد أخرى عطره لتنبعث منها رائحة طيبة تتجه نحو الشخص المراد تكريمه، فيتبخر بها. والتجمير علامة بالطبع من علامات التقدير والتكريم.

١- تاج العروس، (سمر).

٢- جواد علي، ٣٥/٥.

٣- تاج العروس ٧٤/٩ (ندم).

وكان الوجوه وإشراف البلد إذا أرادوا الانشراح شربوا وسمعوا القيان، وكان لأكثرهم قيان امتلكوها للترفيه عنهم بالغناء. و(القينة) الأمة المغنية.

ومنهم من يستدعي إليه أصحاب المجون والنوادر والفكاهات والملح للترفيه عنهم[1].

اللباس:

جاء في بعض الأخبار: «كل ما شئت والبس ما شئت»، ولكن الشائع بين الناس «كل ما شئت والبس ما يشتهي الناس»، ذلك لأن اللباس مظهر وعلى الإنسان أن يظهر في خير مظهر أمام الناس. وقد ورد أن العرب تلبس لكل حالة لبوسها. وينطبق ذلك على السراة وذوي اليسار والثراء بالطبع، أما سواد الناس، فلم يكن من السهل عليهم الحصول على اللباس. إذ كان غالياً مرتفع الثمن بالنسبة لأوضاعهم الاقتصادية. فكانوا يسترون أجسامهم بأسمال بالية وبكل ما يمكن إن يستر الجسم به.

وكسوة العرب، تختلف وتتباين، باختلاف الشخص وباختلاف الجماعة التي ينتسب إليها والمكان الذي يعيش فيه. فللأعراب ألبسة وذوق، ولأهل المدن أذواق وأمزجة في اللباس، تتباين فيما بينها، بتباين المنزلة والمكانة والحرفة.

ولذوي اليسار والثراء ألبسة فاخرة، يستوردونها من الخارج في بعض الأحيان، فيها أناقة وفيها تصنع، وهي من المواد الغالية الثمينة في الغالب، لا يتاح لغير الموسرين الحصول عليها. ثم أن بعض الناس يفضلون لوناً يعافه بعض آخر ويتجنبه.

وقد كان أثرياء مكة ويثرب والقرى والقبائل يلبسون الملابس الفاخرة المصنوعة من الحرير ودقيق الكتان والخز، وغير ذلك من الثياب الغالية الرقيقة، المستوردة من دور النسيج المعروفة في جزيرة العرب ومن خارجها، ويلبسون النعال الجيدة، مثل النعل الحضرمية المشهورة بمكة، ويتعطرون بعطور غالية ثمينة، ويركبون الدواب الحسنة المطهمة مبالغة في التباهي والتظاهر.

وتختلف كسوة الرأس عند العرب باختلاف منزلة الرجل ومكانته ووضعه وحاله. و(العمامة) هي فخرهم وعزهم وأفخر ملبس يضعونه على رؤوسهم. حتى قيل:

١- جواد علي، ٤٣/٥.

(عمم الرجل: سوّد لأن تيجان العرب العمائم، فكما قيل في العجم توج من التاج، قيل في العرب عمم)، وتعد العمامة من لبس الطبقة العالية والمترفة، وذلك لأن الطبقة الفقيرة والعامة لم تكن تتمكن من اقتنائها، وإنما تضع على رأسها أغطية أخرى، أخف وزناً وأرخص ثمناً من العمامة. وعرفت (المساتق) الحجاز. وهي فراء طويل الأكمام، واحدتها (مستقة) وذكر الجواليقي أنها من الألفاظ المعربة عن الفارسية، وأنها (مشت) في لغة الفرس.

وأما الجبة، فهي من ألبسة الموسرين كذلك، لأنها غالية، تكون من خز، وتكون من ديباج ومن أقمشة أخرى.

والجبب مثل سائر الثياب، لا تكون بلون واحد. فقد تكون بيضاء، وقد تكون سوداء، وقد تكون حمراء، وقد تكون خضراء.

و(البرنس): قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه، ملتصق به، درّاعة كان أو جبّة، أو ممطراً. وكان النساك يلبسونها في صدر الإسلام. واللفظة من الألفاظ المعربة عن اليونانية.

و(القميص) من الثياب المقطعة. ذكر بعض علماء اللغة أنه لا يكون إلا من قطن أو كتان، وأما من الصوف فلا. والظاهر أنهم خصصوه بالقطن أو الكتان للغالب. والرداء، الوشاح، ويقع على المنكبين ومجتمع العنق. وهو ما يشمر على النصف الأعلى من الجسم لتغطيته، ويكون من قطعة واحدة من القماش، يلف على هذا النصف. قد يكون طويلاً واسعاً، وقد يكون قصيراً. وقد يلف على الجسم رأساً، وهو الغالب، وقد يلف فوق ألبسة أخرى.

والإزار، الملحفة، وما يستر أسفل البدن، والرداء ما يستر به أعلاه وكلاهما غير مخيط. فهو قطعة قماش، يلف به القسم الأسفل من البدن لستره. واكتسبت البرد اليمانية شهرة كبيرة بين الجاهليين، وبقيت شهرتها في الإسلام، وهي ذات ألوان[1].

ويلبس العرب النعال في أرجلهم، ويفضلونها على غيرها من ألبسة الرجل مثل الخف. وتصنع من الجلود المدبوغة، ولا سيما جلود البقر.

١- جواد علي، ج٥، ص ٥٣-٥٤.

والخفاف جمع خف، هي في منزلة النعل عند العرب. لبسوها في أرجلهم وشاع استعمالها بين أهل المدر في الحجاز وفي الأمكنة الأخرى.

ومصابيح القوم من الفخار، أي الطين المشوي بالنار، يوضع في بطنه زيت الوقود تتصل به فتيلة تولع بالنار، ليستضاء بها، وذلك في الأماكن التي يندر فيها استعمال الحجر. أما في الأماكن الجبلية ذات الحجر، فتستعمل كذلك المصابيح المستعملة من الحجر، وبخاصة في بيوت الكبار والموسرين. ويستعملون فيها زيت الزيتون. ولا يزال بعض الناس يستعملون هذه (الضواية) في الإنارة، وتعرف بـ (المسرجة) كذلك. و(السراج). هو المصباح والنبراس. و(القراط) شعلة السراج، و(الذبال) ما يحمل (السراج). ويقال سَغَّم المصباح، أي مدّه بالزيت.

أما الأعراب، فلم يكونوا يعرفون المصابيح، ومصابيحهم نجوم السماء وضوء القمر يهتدون بها ويستلهمون منها معنى الحياة[1].

المأكل والمشرب:

يختلف أكل العرب عن أكل الأعراب. كما يختلف أكل أهل كل مكان عن أكل أهل مكان آخر في جزيرة العرب. وأكل الحضر، متنوع نوعاً ما بالنسبة إلى مأكول أهل الوبر. لفقرهم ولشح باديتهم. ولذلك صار طعام الأعراب على العموم بسيطاً. وقد أثر اختلاف نوع الطعام على هيئة الإنسان ووزن جسمه. فصار جسم الأعرابي نحيفاً في الغالب، لبساطة أكله، وقلة المواد النشوية والدهنية فيه.

ومن عادات العرب أنهم يقلون من الأكل. ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع. ويرون أن (الأزم)، أي قلة الأكل أفضل دواء لصحة الأبدان. وهم يعالجون البطنة بالحمية. لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء[2].

ومآكل الأعراب قليلة شحيحة مثل شح البادية، لا سيما إذا انحبس المطر وهلك الزرع. فإن رزقه يقل وقد يذهب ما معه من زاد فيهلك خلق من الأعراب من شدة الجوع.

١- جواد علي، ج٥، ص ٥٧-٥٨.

٢- بلوغ الأرب ١/ ٣٧٠.

قيل لأعرابي ما طعامكم؟ قال: (الهبيد والضباب واليرابيع، والقنافذ والحيات، وربما والله أكلنا القد، واشترينا الجلد، فلا نعلم والله أحداً أخصب منا عيشاً). والهبيد: حب الحنظل، تنفقه الأعراب في الماء أياماً، ثم يطبخ ويؤكل وأما القد، فجلد السخلة.

وكانوا يفصدون عرق الناقة ليخرج الدم منه فيشرب، يفعلونه أيام الجوع. كما كانوا يأخذون ذلك الدم ويسخنونه إلى أن يجمد ويقوى فيطعم به الضيف في شدة الزمان، إذا نزل بهم ضيف فلا يكون عندهم ما يقويه، ويشح أن ينحر المضيف راحلته فيفصدها. و(الفصيد) دم كان يوضع في الجاهلية في معى من فصد عرق البعير ويشوى وكان أهل الجاهلية يأكلونه وتطعمه الضيف في الأزمة.

وأما (الفصيدة)، فتمر يعجن ويشاب بدم. وهو دواء يداوى به الصبيان[1]. وكان أحدهم إذا نال شربة من اللبن المذوق بالماء، وخمس تميرات صغار، ظن نفسه ملكاً، ودب إليه نشاطه.

وأكل الجراد معروف مشهور عند الأعراب. يأكلونه نيئاً، وقد يطبخونه أو يحمصونه ويلقون عليه شيئاً من الملح. وقد يأكلونه بالتمر. وبغيره، وهو عندهم طعام لذيذ.

وغالب أكل الأعراب لحوم الصيد والسويق والألبان. وكانوا لا يعافون شيئاً من المآكل لقلتها عندهم. حتى أنهم كانوا يأكلون كل شيء تقع أيديهم عليه[2].

وللأغنياء والحضر آداب في مآكلهم، تبدأ بغسل الأيدي، فإذا انتهوا من غسل الأيدي، أكلوا بها. إذ قلما كانوا يستعملون السكاكين و(الملاعق) و(الشوكات) في أكلهم على نحو ما كان يفعله أغنياء العجم. وإذا انتهوا من طعامهم غسلوا أيديهم كذلك لتنظيفها من الدسم ومن بقايا الطعام. والأكل باليد عادة شائعة بين الشعوب السامية، يرون لها مزايا على الاستعانة بالأدوات حتى صارت في حكم العرف والعادات، بل جعل الأكل باليد من السنن المحببة في الدين.

وقد استخدم الملوك والأغنياء الخدم في تقديم الأطعمة والأشربة، وكما كان يفعل ملوك الفرس والروم وسراتهما، في كسو خدمهم أكسية خاصة نظيفة وإلباسهم

١- تاج العروس ٢/٢٥٣. (فصد).

٢- جواد علي، ٥/٦.

(سرابيل)، معتملة، كذلك فعل ملوك العرب وسراتهم، ولاسيما عرب العراق وبلاد الشام، بخدمهم.

ويعد أكل اللحوم من أطايب الحياة، ومن المفاخر التي يتباهى بها الناس على غيرهم، إذا لم يكن في ميسور كل إنسان الحصول على اللحم، ولا سيما (اللحم السمين). وإذا أضيفت إليها الخمور والطيب، والنساء، تمت بذلك مباهج الحياة. وقد عبر عن (الخمور واللحم والطيب)، بالأحامرة الثلاثة. وكانت هذه تستنزف المال، لما ينفق الإنسان في الحصول عليها من ماله. قال الأعشى:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي، وكنت بها قديماً مولعاً

وقال:

الخمر واللحم السمين، وأطلي بالزعفران، فلن أزال مولعاً

وتسربت إلى أهل الحجاز وسائر جزيرة العرب مأكولات أعجمية حافظت بعضها على أصالتها وعلى عجميتها. فذكر أن أهل المدينة، لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر، علقوا ببعض مأكولاتهم، فسموا السميط (الرزدق) والمصوص المزور، والبطيخ الخريز، ومأكولات أخرى، أدخلها هؤلاء الفرس وأمثالهم بحكم نزولهم على العرب قبل الإسلام.

والثريد، هو طعام محبوب مشهور عند العرب. وهو طعام يتكون من فت الخبز وتهشيمه ثم بله بالمرق. والغالب أن يكون بالمرق واللحم. ومن أكلات العرب المعروفة (الحريقة)، وهي أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيحتسى وهي أغلظ من السخينة يبقى بها صاحب العيال على عياله وقت الشدة. و(الحيسة) وهي تمر وسمن وأقط.

وللعرب أوانٍ استخدموها لتقديم الطعام بها إلى الضيوف. منها: الفيخة والصحفة، وهي تشبع الرجل، والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة، والقصعة تشبع الأربعة والخمسة، والجفنة تشبع ما زاد على ذلك، والدسيعة وهي أكبر الأواني عندهم. وقيل أكبرها الجفنة التي ورد ذكرها في شعر الشعراء على سبيل الفخر والمدح[1].

١- جواد علي ٥/٦٥-٦٦.

مياه الشرب:

ولما كان الجفاف هو الغالب على مناخ جزيرة العرب، لذلك قل الماء فيها، واضطر الناس إلى قطع المئات من الأميال للوصول إلى موضع ماء للتزود به. ولهذا صار عزيزاً عليهم ثميناً، فقد تنقذ كمية قليلة منه حياة شخص. وتكثر الحاجة إليه بصورة خاصة في الصيف، حيث تشتد الحرارة، فيشتد العطش. ولذلك يقترب الناس في موسم الصيف من مواضع الماء، حتى إذا نفد ما عندهم منه، ذهبوا إلى أقرب ماء إليهم، للتزود به.

وألذ المياه عند العرب ماء الغيث. أي ماء المطر، فإذا جادت السماء به، سال إلى المواضع المنخفضة وتجمع بها، فيأتي الأعراب إليها للاستقاء منها.

والعيون والآبار والحسي، هي من المنابع الأخرى التي أمدت العرب بالماء. والعين، هي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض. والبئر، هي القليب. قد تكون بئراً عادية، وهي البئر القديمة التي لا يعلم لها حافر ولا مالك، وقد تكون بئراً يعرف صاحبها وحافرها ومالكها. وقد كان الجاهليون يحفرون الآبار لأنفسهم للاستقاء منها وللزرع بمائها، كما كانوا يبيعون ماءها لغيرهم. وأما (الحسي)، فهي المواضع التي يظهر فيها الماء من جوف الأرض على وجه التربة. ومنها حسي الأحساء وأحساء خرشاف، وأحساء (غنى) وأحساء اليمامة، وأحساء جديلة[1].

وقد يتجمع الماء في حفر، فيكون بركاً. وذكر أن البركة مثل الحوض يحفر في الأرض، وذكر أن العرب يسمون الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً. وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ولا تطوى بالآجر، فهي الأصناع[2].

وللعرب طرق في معالجة المياه المالحة، مثل ماء البحر، وفي معالجة المياه الكدرة. من ذلك أنهم كانوا إذا اضطروا إلى شرب ماء البحر، وضعوه في قدر، وجعلوا فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى

١- تاج العروس ٩/١٠، (حس).

٢- المصدر السابق، ١٠٦/٧، (برك).

الصوف، فإذا كثر عصروه، ولا يزالون على هذا الفعل حتى يجتمع لهم ما يريدون. فيكون ما استخرج من الماء من عصر الصوف ماء عذب، ويبقى في القدر الزعاق[1].

حياة الشبان:

ومن الشبان من كان يقضي وقته بالشراب، وبمصاحبة القيان، وهم أولاد اليسار والمجّان. وكان منهم من يأوي إلى منزل أحدهم فيعكفون على اللهو والشرب، لا يعبؤون ولا يكترثون. ومنهم شباب مكة قبل الإسلام.

وكان منهم قوم مستهترون لم يبالوا بحرمة ولا بأحد، حتى أن شاباً من شباب مكة سرق من خزانة الكعبة لينفق مما سرقه على شربه وقيانه. وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان). وكانوا يقضون أوقاتهم بالشراب وبلبس الثياب النظيفة، وبالسماع إلى القيان كما عرفوا بالسخاء على من حولهم وعلى من يجتمع معهم من الفتيان. وكانوا شجعاناً، يخرجون إلى القنص والصيد. وقد أشار أهل الأخبار إلى أسماء بعض هؤلاء الفتيان[2].

وشباب الجاهلية مثل شباب أهل كل زمان، لا يختلفون عنهم بشيء، في تأنق بعض منهم وفي محاولته إظهار شبابه تجاه البنات. فكان شباب القرى والمدن ولا سيما الوضيئون منهم وأهل الجمال يتسكعون في الأسواق وفي مواضع التجمع، بل وحتى في المعابد ليعبثوا في كلامهم مع البنات وليتحدثوا لتجاسرهم على بنات الحي. حتى منع البعض من الشباب الجميل من التأنق في الملبس حتى لا يلفتوا إليهم أنظار البنات، فيثرن فيهم عاطفة الجموح نحو التشبب والحب.

والحياة عند بعض الناس: خمر ولحم وخلوق. فهي متع الحياة عندهم. والحياة عند البعض خمر ونساء. واتهمت المرأة بحبها الحلي والطيب. ورد: (أهلك النساء الأحمران. يعنون الذهب والزعفران، (أي أهلكن حب الحلي والطيب).

وورد (الأحمران: اللحم والخمر). ويقال للذهب والزعفران: الأصفران، وللماء واللبن الأبيضان، وللتمر والماء الأسودان. وورد الأحمران: الخمور والبرود[3].

١- جواد علي ٧٨/٥.

٢- المحبر ص ١٧٣-١٧٤.

٣- تاج العروس ١٥٤/٣، حمر.

الخمور:

وشرب الخمر ومجالسه من اللهو المتصل بالحياة الاجتماعية. وفي القرآن آيات عديدة في ذلك. منها ما أشير فيه إلى ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من خمر وشراب وصفاتهما وآنيتهما ومجالسهما وما بينهما من شراب الدنيا وخمرها من فروق.

ومنها ما أشير فيه إلى ما كان في الخمر من منافع مع التنبه إلى أن إثمه أكبر من نفعه، وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب. والمتع الثلاث: الخمر والقمار والنساء. فإذا أضيفت الشجاعة إليها صار الفتى من خيرة الفتيان، لذلك كان الشباب يفتخرون إذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها. وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للإنفاق على متعهم هذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة.

وقد أدمن كثير من أهل الجاهلية على شرب الخمر، وهلك قسم منهم بسببها، وكانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب والأعشاب وغير ذلك، بل كان منهم من يخمر اللبن، ولا سيما ألبان الإبل، ولانتشاء بها. و(النشوة) السكر.

وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً من الفضيخ المصنوع من (البسر والتمر) كانوا يضعونه في قلال وجرار وهو خليط من بسر وتمر، ومن تمر وزهو. والزهو هو البسر الملون الذي ظهرت فيه الحمرة والصفرة، كما كانوا يصنعونها من خلط الزبيب والتمر أيضاً. وكانوا يجلسون مجلسهم، ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه، من قلال أو كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً.

واستخرج أهل اليمن من الشعير شراباً عرف عندهم باسم (المزر). وذكر أن (المزر) نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب، وقيل نبيذ الذرة خاصة.

ومن الخمور نوع اشتهر في العراق باسم (الخمور الصريفية) نسبت إلى قرية (صريفون) عند (عكبراء) في العراق، وإياها غنى الأعشى بقوله:

وتجبى إليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخورنقُ

ووصف الأعشى في شعر آخر الخمر الصريفية فقال:

صريفية طيبٌ طعمها لها زبد بين كوب ودن

وذكر بعض العلماء أنها إنما عرفت بصريفية، لأنها أخذت من الدن ساعتئذٍ كاللبن الصريف[1].

وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان، ولا سيما على الطرق. حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب. وكان بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك. أصحابها نصارى ويهود في الغالب. ومعظمهم من غير العرب، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائها للناس. وقد عرفت (الخمارة) بالحانوت. وقد أشير إلى الحانوت في الشعر الجاهلي. وكانت العرب تسمي بيوت الخمارين الحوانيت. وأهل العراق يسمونها المواخير[2].

وللخمر أسماء عديدة، ذكرها علماء اللغة. منها ما هي معربة. عربت عن اليونانية، أو الفارسية، أو السريانية، لأنها استوردت من بلاد الشام أو العراق.

ومن الخمور خمر يقال له: (الاسفنط). وهو. وهو المطيب من عصير العنب. ومن الخمور أيضاً (التبغ)، وهو نبيذ العسل، وهو خمر أهل اليمن. ومن الخمور (المقدة) يتخذ من العسل على بعض الروايات. يقال أنه من قرية تسمى (المقدة) بالأردن، وقيل هي في طرف حوران قرب أذرعات.[3]

القمار:

و(القمار) من الألعاب المتفشية كثيراً بين الجاهليين، ولم يكن الباعث إليه التسلية واللهو في الغالب، وإنما كان طمعاً في الربح. ويسمى (الميسر) في العربية التي نزل بها القرآن الكريم. وقد حرمه الإسلام.

وذكر أن كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. وعرف الميسر: أنه القمار بالقداح في كل شيء. وقامر الرجل راهنه. وقد قال علماء اللغة والمفسرون أن الكلمة مشتقة من اليسر بمعنى السهولة لأن متعاطي الميسر يبتغي الربح بيسر ومن دون تعب كما قالوا إنها مشتقة من اليسر بمعنى التجزئة. لأنهم كانوا ينحرون جزوراً ويجزئونها في معرض المراهنة والميسر.

١- جواد علي ٦٦٦/٤-٦٦٧.

٢- المصدر السابق، ص ٦٦٧.

٣- المصدر السابق، ص ٦٦٩.

وصفة الميسر: أن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجزور بينهم، فيفصلونها على عشرة أجزاء، ويؤتى بالقداح وهو أحد عشر قدحاً، سبعة منها لها حظ إن فازت، وعلى أهلها غرم إن خابت. وثمن الجزور يدفعه الغارمون. واللحم يوزع على الفقراء وذوي الحاجة. وكانوا يسمون السهام التي تقذف بأسماء ويجعلونها مراتب في الربح والخسارة. ومن أنواع القمار أيضاً الرهان على سبق الخيل.

الأسفار:

ومن أيام الفرح والسرور عندهم يوم العودة من السفر ومن حقهم أن يفرحوا به. فقد كان السفر شاقاً خطراً في تلك الأيام، ولا سيما إذا طال. فقد يتعرض المسافر فيه للهلاك والموت جوعاً أو عطشاً، عدا ما يتعرض له من السلب والنهب. لذلك كانوا يحاولون جهدهم أن يسافروا جماعة وقوافل يتعاونون ويشد بعضهم أزر بعض. وكانوا إذا عادوا فرح أهلهم بعودتهم سالمين، وتلقوهم بالبشر والتهنئة، وذبحوا الذبائح ووزعوا لحومها بين الأصدقاء والفقراء، وأولموا الولائم للمهنئين والجيران. وكان أول ما يفعله المسافر إلى مكة عند عودته إلى مدينته الذهاب إلى (البيت) للطواف به ولشكر رب البيت على حمايته له وإغداقه نعمته عليه بالعودة سالماً.

وقد عثر السياح والمنقبون عن الآثار في جزيرة العرب على كتابات جاهلية توسل فيها أصحابها إلى آلهتهم لترعاهم في سفرهم، وتحفظهم من لصوص الطرق ومن كل شر وسوء. وقد تعهدوا فيها بتقديم نذور لمعابدها بعد عودتهم سالمين غانمين.

وكانوا إذا أرادوا السفر عمدوا إلى فعل الجاهلية في زجر الطير والاستقسام بالأزلام لاختيار الطالع، فإذا خرج سهم (الأمر) فسروه بالأمر بالسفر، وإذا خرج النهي، انتهوا عنه.

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه، ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه.

الصيد:

والصيد في جزيرة العرب رغبة وحاجة. رغبة للملوك والرؤساء والأثرياء للأنس والترويح عن النفس، وحاجة عند السواد وهم فقراء في الغالب لا يملكون شيئاً، فلحم الصيد نعمة كبرى وغذاء طيب لا يصل إليهم دائماً.

أما اصطياد الرؤساء والأثرياء فبالاستعانة بالصقور في الغالب، حتى إذا قيل كنا نتصقر، انصرف الذهن في الحال إلى الصيد، لاستعمال الطيور في الصيد، حيث تدرب تدريباً خاصاً وتعلم تعليماً متقناً، فإذا رأت الحيوان انقضت عليه، فلا تتركه يستطيع الحركة والهرب إلى أن يصل الصياد إلى الفريسة المسكينة. وتستعمل كلاب الصيد كذلك، وهي كلاب سريعة مدربة تدريباً خاصاً، فإذا رأت الصقر فوق الفريسة عدت خلفها لتساعد الصقر في القبض على الحيوان فلا يهرب ويولي.

ومنها ما تفتش عن مواضع اختفاء الحيوانات، فإذا شعرت بوجود حيوان في كهف أو مغارة تدخل إليها أو تقوم بحركات تضطره إلى الخروج فيصطاده الصياد. وقد تستعمل الخيل كذلك. وهي لم تكن كثيرة في الجاهلية، ولا يملكها إلا المتمكنون[1].

وأما أهل السواحل، فقد اضطرتهم طبيعة بلادهم على الاصطياد في البحر، على اصطياد سمكة، للاعتياش عليه ولبيع الفائض منه. أو لتخفيف الزائد منه لأكله وقت الحاجة أو لتقديمه علفاً للحيوانات. وقد اشتهر سكان الخليج في الجاهلية أيضاً بالغوص لاستخراج اللؤلؤ من الصدف الكامن على قاع البحر. وقد كان يؤتيهم ذلك أرباحاً طائلة.

الأفراح:

الأفراح، عامة أو خاصة. فمن الأفراح العامة، الأعياد والمناسبات المماثلة، مثل الانتصار في حرب أو تولي ملك عرشاً أو سيد رئاسة قبيلة. ومن الخاصة، الزواج والبرء من مرض، والعود من سفر، وأمثال ذلك.

ولما كان العرب في جاهليتهم قبائل وشيعاً وكان الاتصال بينهم صعباً، صارت أعيادهم كثيرة غير متفقة في زمان أو مكان، ذات صفة محلية، لا يشترك فيها كل عرب الجزيرة. وهي مرتبطة بالأصنام في الغالب وبالمواسم التجارية التي تتجلى في انعقاد الأسواق.

والدين من أهم العوامل المساعدة لظهور الأعياد وجمع شمل المؤمنين به للاحتفال بها. ولذلك فأعياد الجاهليين هي أعياد موضعية تعيّد قبيلة أو مدينة أو مملكة بعيد،

١- جواد علي، ٤/٦٧٥-٦٧٦.

ولا يعرف عنه بقية العرب أي شيء. أما أعياد اليهود والنصارى والعرب فأمرها أمر آخر، لأن اليهودية والنصرانية قد حددتا تاريخاً ثابتاً للأعياد فيها، فصارت معروفة عند أتباع الديانتين يحتفلون بها في جل الأوقات. وكان الحج إلى مكة من أهم مواسم العرب في الحجاز، وهو عيد، يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل ومختلف الأماكن للتقرب إلى الأصنام وللتلاقي في ظروف أمن وسلام لا يحل فيها قتال ولا اعتداء ولا لغو ولا فحش. ويقوم أهل مكة بخدمة الوافدين الضيوف، ضيوف (البيت)، وتمر أيام خالية من غدر واعتداء وقتل وأخذ بثأر يلبس فيها الناس خير ما عندهم من لباس ويتجلون بأحسن صورة. فإذا انتهت الأيام عادوا إلى ديارهم.

وذكر إنه كان لأهل يثرب يومان يعيّدون فيهما، يلعبون فيهما ويستأنسون، ، هما: النيروز، والمهرجان. فلما قدم الرسول المدينة أبدلهما بيوم الفطر والأضحى.

والظاهر أن اليثربيين أخذوا عيديهما المذكورين من الفرس، (النيروز) عيد شهير من أعياد الفرس من أصل (نو) بمعنى جديد و(روز) بمعنى يوم، أي أول يوم من السنة الإيرانية الشمسية. وأما (المهرجان) فإنه عيد من أعياد الفرس كذلك، يعيّد به في الشهر السابع من شهورهم الشمسية، وهو شهر (مهر) (مهراه)، ويدعى العيد (مهركان). وقد بقي الفرس يحتفلون في الإسلام، حتى زماننا هذا، وورد ذكره في الأشعار.

ولم يذكر أهل الأخبار كيف عيد أهل يثرب بهذين العيدين اللذين هما من أعياد الفرس. ولا ما هي صلتهم بهما.

وذكر أهل الأخبار عيداً سموه (يوم السبع)، قالوا إنه عيد كان لهم في الجاهلية يشتغلون فيه بلهوهم وعيدهم من كل شيء. ولم يتحدثوا بشيء مفصل عنه، ولم يذكروا أنه عيد منْ.

الغناء:

وطرب الأعراب، طرب ساذج يتناسب مع طبيعة بيئاتهم، وكذلك كان غناؤهم غير معقد ولا متنوع. أما طرب أهل الحضر، فكان أكثر تعقيداً وتفنناً ولا سيما طرب أهل الحضر الساكنين في ريف العراق وفي بلاد الشام، وعند أهل اليمن، فاستعملوا

آلات طرب متعددة، أخذوا بعضها من الأعاجم الذين اتصلوا بهم، كما أخذوا من أولئك الأقوام ألواناً من ألوان الغناء وفنونه. هذا الاختلاف لا بد أن يقع، لاختلاف أهل الوبر وأهل المدر في البيئات، وفي الطباع والعادات. وللشعر علاقة كبيرة بالغناء. فالغناء هو التغني بالشعر. ولذلك قالوا: تغنى بالشعر، وفلان يتغنى فيها شعراً. وله علاقة بالحداء أيضاً. قالوا: حدا به، إذا عمل فيه شعراً[1] فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون. وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء. أما النثر، فلا يناسب طبعه طبع الغناء. ويكن بينهما جفاء. إذا لا يستقيم النثر العربي مع الوزن دائماً. لذلك فلا يمكن للمغني أن يغني به. قال (الجاحظ): العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن، فتضع موزوناً على غير موزون. وذكر أن الغناء من الصوت ما طرب به[2].

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يستمعون إلى القيان. وأن فارس كانت تعد الغناء أدباً والروم فلسفة. وأن الملوك العرب كانوا يملكون القيان أيضاً. ومنهم أشراف مكة وعلى رأسهم (عبد الله بن جدعان)[3].

وقد عرف غناء أهل البادية بـ (غناء الأعراب)، وذلك لاختلافه عن غناء الحضر. فكان لأهل الحيرة مزاج في الغناء يختلف عن مزاج أهل البادية، بل حتى عن مزاج غيرهم من الحضر. وذلك للظروف الخاصة التي تحيط بهم، مثل اختلاطهم بالفرس، ووجود النصرانية والمؤثرات اليونانية فيما بينهم. وقد كان في كنائس العباديين نصارى الحيرة، تراتيل وترانيم، وهي بالطبع نوع من الغذاء الروحي، وقد كان عندهم خمر تبعث على الانشراح والانبساط، وأديرة مزدانة بالخضرة والرياحين والأزهار، وفيها ماء طيب وغناء رهبان وراهبات، فلا عجب إن طرب سكانها وتفننوا في غنائهم، وتميزوا به عن بقية الغناء العربي حتى قيل له: غناء أهل الحيرة، وقد ذكر: أنه بين الهزج والنصب، وهو إلى النصب أقرب، كما كانت لهم لغة امتازت عن لغات العرب الآخرين غنوا بها، فأكسب غناؤهم طابعاً. حيرياً خاصاً[4].

١- بلوغ الأرب ٣٦٩/١.

٢- تاج العروس ٢٧٥/١٤٠.

٣- رسائل الجاحظ ١٥٨/٢.

٤- الأغاين ١٢١/٢.

ومن مرادفات الغناء (السمود) بلغة حمير. وقيل السمود اللهو وبصورة خاصة الغناء.

وأما (العزف) فالملاهي، واللعب بالمعارف، وهي الدفوف وغيرها مما يضرب. والعارف اللاعب بها والمغني والمعزف، ضرب من الطنابير يتخذه أهل اليمن وغيرهم، ويجعل العود معزفاً.

ويعبر عن الاستماع إلى الغناء والإنصات لصوت المغني بـ (السماع). ويحدث السماع طرباً في النفس. وقد صار للكلمة معنى خاص في الإسلام، إذا تحولت إلى سماع الترانيم الدينية في الغالب، لذلك لم ينظر إليه نظرة الناس إلى الغناء[1].

وتغنى أهل الجاهلية في كل المناسبات المبهجة، وضربوا على آلات الطرب. ومن هذه المناسبات الزواج والعودة من الأسفار، كما كانوا ينذرون أنه إن تحقق مطلب لهم فإنهم يقيمون مجلس طرب يتغنى فيه: كمناسبة وشفاء من مرض أو عودة من حرب.

وكان شبان مكة يذهبون إلى السمر ويلهون بسماع الغناء وبالضرب على الدفوف والاستماع إلى تزمير المزمار[2]. كما استعمل الغناء في الغزو. وذلك لتنشيط الغازين وتحريضهم على القتال. ومن هذا القبيل ما يرتجز به الشجعان عند اللقاء في الحرب. واستعمل في الختان وفي العقيقة والولائم.

آلات الطرب:

وآلات الطرب عند العرب ثلاثة: الآت ذات أوتار كالعود وآلات نفخ، وآلات ضرب كالصنوج والطبل والدفّ.

والطرب: الفرح والحزن وهو ضد، أو هو خفة تلحقك سواء تسرك أو تحزنك. فهي تعتري عند شدة الفرح أو الحزن أو الغم. والتطريب التغني. ويقال طرب فلان في غنائه تطريباً إذا رجع صوته وزينة.

والدف من آلات الطرب القديمة المشهورة ويستعمل للتعبير عن العواطف في الفرح والسرور. وهو معروف عند الساميين ويسمى (توف)، (تف) Topy عند العبرانيين. وقد

١- نهاية الأرب ٤/١٦١.

٢- المصدر السابق، ١٤٥.

كان شائعاً عند العرب، ينقرون به في أفراحهم. وأكثر ما استعمله العرب في المناسبات المفرحة، كالنكاح. ورافقوا الضرب به أصوات الغناء.

وقد وردت في الشعر الجاهلي أسماء آلات طرب عرفت في ذلك العهد، فورد في شعر الأعشى: الناي، والبربط، والصبخ، وهي آلات عرفت عند الفرس. وقد دعي الناي بـ (ناي نرم).

وجاء الأعشى باسم آلة طرب أخرى من آلات الملاهي عند العجم، دعاها (الوَنّ):

بالجُلّسان وطيب أردانه بالونّ يضرب لي بكر الإصبعا

ويظهر من هذا البيت أن ألونّ آلة طرب ذات أوتار، يضرب عليها بالأصابع. وعرف بعضهم (الونج) بأنه «المعزف أو العود، فارسي معرب. واصله بالفارسية وَنَهْ. وقد تكلمت به العرب. ومنهم من جعل (الون) و(الونج) شيئاً واحداً. و(الناي) من آلات الطرب، ينفخ فيه، يصنع من الخشب ومن القصب. وذكر أن الناي من أسماء (المزمار)، وهو من آلات النفخ كذلك. و(القصبات)، وهو الذي ينفخ في القصب الزمار.

وأما (الهيرعة)، فالقصبة، التي يرمز فيها الراعي[1].

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عباداتهم، وربما استخدموا معه بعض آلات الطرب. وذلك تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقرباً إليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور إلى نفوسها. وقد ذكر المفسرون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون. وإذا صح قولهم هذا، فإنه يعني استعمال نوع من الطرب في حجهم وطوافهم بالبيت.

واللحن: الغناء. (وفي الحديث: اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل العشق)[2]. ويراد به التطريب وترجيع الصوت وتحسين القراءة والشعر والغناء. وقد كان اليهود والنصارى يقرؤون كتبهم نحواً من ذلك.

١- جواد علي ٥/١٠٨-١١١.

٢- اللسان ١٣/٣٨٣، صادر، (لحن).

أصول الغناء الجاهلي:

ويرجع أهل الأخبار غناء الجاهليين إلى ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج. فأما النصب، ففغناء الركبان وغناء الفتيان والقينات، ويغنى به في المراثي كذلك. وقد دعاه إسحاق بن إبراهيم الموصلي، الغناء الجنابي نسبة إلى رجل من كلب يقال له: جناب بن عبد الله بن هبل.

وهو الذي يقال له (المراثي)، ومنه كان أصل الحداء، وكله يخرج من الطويل في العروض. وأما السناد، فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات. وأما الهزج، فالخفيف الذي يرقص عليه، ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم. ويذكر أهل الأخبار أن الأنواع المذكورة كانت غناء العرب، حتى جاء الإسلام وفتحت العراق، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم، ففغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير.

وذكر أيضاً أن الغناء قديم في الفرس والروم، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد، وكانوا يسمونه (الركباني) (الركبانية). والنشيد رفع الصوت، ومن المجاز الشعر المتناشد بين القوم ينشده بعضهم بعضاً.

وذكر المسعودي أن غناء العرب النصب، ثلاثة أجناس: الركباني، والسناد الثقيل، والهزج الخفيف[1].

ويرى بعض أهل الأحبار أن أصل الغناء ومعدنه إنما كان في أمهات القرى من بلاد العرب، حيث فشا بها، وانتشر. ومن هذه مكة والمدينة والطائف وخيبر ووادي القرة ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب.

وذهب المسعودي إلى أن أول من اتخذ القيان من العرب، أهل يثرب. أخذوا ذلك من بقايا عاد. بينما يذكر الإخباريون، أن أول من غنى من العرب العاربة الجرادتان، وكانتا قينتين على عهد عاد، لمعاوية بن بكر العمليقي.

والقينة عند علماء اللغة: الأمة المغنية، وذكروا أنها كلمة هذلية وقال بعض آخر: مغنية كانت أو غير مغنية. وإنما قيل للمغنية قينة، إذا كان الغناء صناعة لها،

١- جواد علي ٥/١١٣-١١٤.

وذلك من عمل الإماء دون الحرائر. والظاهر أنها من الألفاظ المعربة، فالغناء في لغة الآراميين هو: (قنتو) QINTO والمغنية (قينة) من الغناء (قنتو).

وذهب أهل الأخبار إلى أن الغناء محدث في العرب، أخذ من الحداء. وكان الحداء في العرب قبل الغناء. وكان أول السماع والترجيع في العرب، ثم اشتق الغناء من الحداء. اشتقه (حباب بن عبد الله الكلبي)، فغنى النصب.

ويظهر من غربلة ما ورد في الأخبار عن الغناء، أن المراد به، تلحين ما يراد التغني به وتطريبه، حتى يثير الطرب في نفوس السامعين، لا سيما إذا اقترن بآلة من آلات الطرب. ونادراً ما يكون غناء دون (موسيقى). فالموسيقى تصاحب الغناء. والغناء: تلحين ما يراد التغني به بتقطيعه قطعاً موزونة تكون نغمة، يوقع على كل صوت منها بإيقاع يناسبه، فيزيده لذة في السماع.

وقد تخصص أناس من رجال ونساء بالغناء، واتخذوه حرفة لهم يتكسبون بها. والمغنون المحترفون هم من سواد الناس، ومن الرقيق. لأن من طبع الشريف والحر الابتعاد عنه. وقد احترف هؤلاء الغناء وتعيشوا عليه. فكانوا يدعون إلى إحياء الحفلات في مقابل أجر يدفع لهم. وقد كان من بينهم من يغني بلغته كالرومية والحبشية، ولهذا فلم يكن من المستبعد سماع غناء أجنبي في موضع مثل مكة أو يثرب لوجود رقيق فيه.

وقد تغنى بشعر بعض الشعراء الجاهليين، ومن هؤلاء شعر الشاعر (مرة بن الرواغ). ويذكر أهل الأخبار أن (امرئ القيس بن حجر)، كان يأمر قيانه أن يغنين بشعره. وأن قيان الملوك كن يغنين به أيضاً، وقد كان النخاسون في الجاهلية يعلمون المغنيات الشعر، للتغني به.

وقد كان أغنياء مكة والقرة الأخرى يملكون القيان، ومنهم من كان يملك عدداً منهن. مثل (عبد الله بن جدعان). وكان (لمقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدي)، قينتان تغنيان، وكان بيته مألفاً لشباب قريش ينفقون عنده ويشربون ويتهاتكون ويبقون على ذلك ليالي وأياماً[1].

١- جواد علي ١١٨/٥.

الرقص:

والرقص وجه آخر من وجوه التسلية والتفريج عن النفس، يرقصون في المناسبات، مثل الأعراس والأفراح الأخرى. وهو في الغالب ارتفاع وانخفاض، وقد يكون ذلك هو الذي حمل علماء اللغة على تفسير الرقص أنه ارتفاع وانخفاض. والراقصون هم من الشباب في الغالب، أما الشيوخ فكانوا لا يرقصون، لعدم ملاءمة الرقص مع جلال السن.

وقد عرف الحبش بحبهم للرقص. وكان أهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز إذا أرادوا الاحتفال بعرض أو ختان أو أي مناسبة مفرحة أخرى أحضروا الحبش للرقص والغناء على طريقتهم الخاصة.

وقد كان الرقص عند الشعوب السامية نوعاً من أنواع التعبير عن الفرح والشكر تجاه آلهتهم. ويدخل في جملة الشعائر الدينية. ولا يستبعد أن يكون الجاهليون مثل غيرهم قد رقصوا لآلهتهم في المناسبات الدينية، تعبيراً عن شكرهم للآلهة[1].

الأحزان:

يلعب الحزن دوراً كبيراً في حياة الشرقيين، بل نستطيع أن نقول إن الحزن في حياتهم من الفرح، وأن المبالغة في إظهاره عندهم هي من المظاهر البارزة في مجتمعاتهم. وطالما يلجأ الحزين إلى المبالغة في حزنه، ليظهر نفسه وكأنه كان أكثر الناس تحملاً للمصائب والأهوال والنكبات، وما قصة (أيوب) الواردة في التوراة إلا نوعاً من هذا القصص. قصص الحزن وتحمل الصبر من شدة البلاء. وفقدان المال بعد ثراء وغنى وجاه، والعلل والأسقام التي تنزل بالإنسان والكوارث والموت وأمثال ذلك، هي مما يثير الحزن والأشجان في النفس، فتجعل الإنسان يحزن على ما أصابه ويظهر جزعه أو تحمله للآلام أمام الناس، وذلك بمختلف أنواع التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزن[2].

وللعرب كما لغيرهم من الشعوب مصطلحات وتعابير خاصة، يعبرون عن آلامهم وأحزانهم وما يجيش في صدروهم. وذلك مثل لبس ألبسة خاصة تكون شعاراً خاصاً

١- جواد علي، ج٥، ص ١٢١-١٢٢.

٢- المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

بالحزن، وذر الرماد أو التراب على الرأس أو تلطيخ الرأس والوجه بالطين، وترك الشعر ينمو دون حلق ولا إجراء تعديل فيه إظهاراً للحزن على ميت، وما إلى ذلك من علامات، هي ضرورية ولازمة بالنسبة للمحزون، إذ إن إهمالها وتركها هو في نظرهم عيب ومنقصة على المفجوع وعلى أصدقائه وعلى آله على حد سواء. ثم هي تقاليد لا بد من مراعاتها والمحافظة عليها.

ومن ذلك أيضاً: النداء. وذلك بإعلان شخص عن المصيبة بصوت عال يسمع حتى يشاركه الناس مصيبته أو ليحصل منهم على ما يرجوه من مساعدة.

ويقال لما يصيب الناس من عظيم نوب الدهر: (دواهي الدهر). وإذا نزلت بشخص مصيبة قالوا: (دهته داهية)، وقد يقولون (داهية داهية) على سبيل التوكيد والمبالغة.

والاصطلاح الشائع عن هلاك الإنسان وفقده الحياة هو (الموت). وقد وردت هذه اللفظة في لهجات عربية أخرى، مثل اللهجة الصفوية واللحيانية. وهناك ألفاظ أخرى تؤدي معنى الموت والهلاك مثل: الهلاك والمنايا والأحداث والحمام والأجل والحتف والقدر والمنون والزمان والسأم والنحب وغير ذلك[1]. وهي مصطلحات جاهلية، بعضها من المصطلحات القديمة، لها معان أوسع من مصطلحات الموت. ولكن بينها وبين هذا المصطلح لما لها من صلة بهلاك الإنسان وبمصيره فجعلت تؤدي معنى الموت[2].

والموت في نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول إلى هلاكه. تخرج الروح من الأنف أو من الفم وذلك في الموت الطبيعي وفي موت الفجأة. أما إذا كان الموت بسبب جرح، فإن الروح تخرج على ما ذكره الأخباريون من الجرح[3]. والروح قد تتحول وتصير طائراً يرفرف فوق قبر الميت يسمى (الهامة) في حالة كون الميت قتيلاً.

ويظهر من تمحيص الأخبار الواردة عن الموت والقبر وأشباه ذلك أن عقيدة الجاهليين أن الروح متصلة بالجسد ملازمة له في أثناء الحياة، فإذا وقع الموت انفصلت عن الجسد وفارقته. ثم اختلفوا فيما بينهم في مصير الروح، فمنهم من تصورها وهي

١- اللسان ١٦١/٢٠.

١- جواد علي ١٤٧/٥.

٢- اللسان ٣٨٢/١٠.

ملازمة (قبر صاحبها لا تفارقه، وكأنها لا تريد أن تفارق الجسد الذي كانت مستقرة فيه). فصارت المقابر موضع تجمع الأرواح، ومنهم من ذهب إلى هلاكها بهلاك الجسد أو تحولها أرواحاً تسبح في عالم الأرواح.

وهناك كلمة أخرى لها صلة وعلاقة متينة بهذه الكلمة. هي لفظة (النفس). وهي من الكلمات الجاهلية القديمة التي وردت في النصوص، معناها الروح والشخص والذات والجيد. ولم يفرق هؤلاء الروح والنفس. ويظهر من بعض التعابير والجمل التي كان يستعملها الجاهليون مثل (خرجت نفس فلان) و(فاضت نفسه) أن المراد بالنفس الروح.

ويعد (المرض) من جملة الآثام التي تنزلها الآلهة بالإنسان، لخروجه على أوامرها ولعدم أداء ما عليه من واجبات وفروض تجاهها، ومنها الحقوق التي فرضتها عليه، وفي رأسها النذور والصدقات والزكاة التي أمرت الآلهة بتقديمها إلى معابدها. ولهذا نجد المريض يتوسل بآلهته لكي تصفح عنه وتعفو عن تقصيره تجاهها، وأن تعيد إليه ما أخذته منه من صحة وعافية في مقابل تقديم نذر لها ووفائه بقيامه بكل ما أمرت به من واجبات تجاهها. وفي المتاحف مئات من الكتابات الجاهلية في هذا المعنى، ومئات أخرى، كتبت شكراً وحمداً للآلهة، إذ سمعت توسلات عبيدها بأن تمن عليهم بالصحة والعافية، فمنت عليهم ولهذا فإنهم كتبوا كتاباتهم تلك للتعبير عن شكرها لها، ولمناسبة تقديمهم النذر الذي نذروه لمعابد الآلهة[1].

الأسواق:

والسوق هو المحل الذي يتسوق منه. وهي إما ثابتة مع أيام السنة، يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء، وإما موسمية، تعقد في مواسم معينة فإذا انتهى الموسم رفعت، ويقال للسوق (القسيمة) كذلك.

وتكون الأسواق الثابتة في مواضع السكن كالقرى والمدن والمستوطنات، أي بين الحضر، حيث القرار والاستقرار والإقامة، فيجلس الناس في السوق يبيعون ما عندهم من سلع، يبسطونها على الأرض، أو على الدكة المبنية للجلوس عليها، ولعرض

١- جواد علي: ٥/١٥١-١٥٢.

البضاعة فوقها، أو على مائدة أو ما شابه ذلك. وهم من صغار الباعة ممن لا تكون عندهم سلع كثيرة. أما الباعة الكبار فيجلسون في حوانيت، وهي الدكاكين، يبيعون فيها سلعهم التي توضع فيها، ولها أبواب، فإذا انتهوا من البيع، أغلقوها ليعودوا إليها في اليوم الثاني. ويقال للحانوت (المبيعة) كذلك[1].

ولم يكن كل الباعة يملكون حوانيتهم، أو ما يعرضونه من سلع للبيع، فبينهم من كان يشتغل لغيره، كأن يكون مملوكاً، أقامه سيده في (مبيعته) ليبيع عنه، وليأتي بثمن ما باعه إليه، ومنهم من كان أجيراً اتفق مع صاحب الحانوت ومالكه على أن يشتغل عنه في مقابل أجر يقدمه إليه، فهو لا ينال من الدكان إلا أجر عمله. وقد تخصص بعض الجاهليين في عمله، فمنهم من كان حداداً، حرفته معالجة الحديد، ومنهم من كان نجاراً، ومنهم من كان بزازاً، ومنهم من كان عطاراً، ومنهم من كان جزاراً. وقد يجتمع صنف واحد من الباعة في مكان واحد يكونون سوقاً خاصة بهم، فتسمى باسم ذلك الصنف.

وهناك مصطلحات تطلق على السوق من حيث الرواج والكساد، فإذا نشطت السوق وراج عمل أصحابها قيل: «نفقت السوق»، وإذا كسدت السوق قيل: «انحمقت».

و(الصفقة): البيعة. يقال صفقة رابحة وصفقة خاسرة، أي بيعة. وإنما قيل للبيعة صفقة، لأنهم إذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي، ويقال لمن لا يشتري شيئاً إلا ربح فيه: إنه لمبارك الصفقة، والصفقة تكون للبائع والمشتري والصفق: التبايع[2].

وقد ترد التجارة من الخارج لبيعها في السوق، ويقال للذين يجلبون الإبل والغنم للبيع الأجلاب والجلب. وذكر أن الجلب ما يجلب من إبل وغنم وخيل ومتاع وسبي. وتمتار القبائل ميرتها من أسواق الحضر، والميرة الطعام يمتاره الإنسان.

فكان رجالها يقصدون الأسواق في المواسم وعن الحاجة لشراء ما فيها من طعام يحتاجون إليه ومن حاجيات أخرى يحتاجون إليها، ثم يعودون إلى منازلهم. و(الميَّار) جالب الميرة، ويقال للرفقة التي تنهض من البادية إلى القرى لتتمار (ميارة)[3].

١- جواد علي: ٣٦٥/٧.

٢- المصدر نفسه، ٣٦٦.

٣- المصدر نفسه، ٣٦٧.

ويباع في الأسواق كل شيء: سلع مختلفة الأصناف والألوان ومنها البشر والحيوان. وقد ذكر بيع الإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء، وفي كيفية جباية حصة الحكومة من البيع والشراء، كما في هذه الجملة المقتبسة من أمر ملكي أصدره الملك (شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان) في تنظيم التجارة والجباية: «بن أنسم وإبلم وثورم وبعرم وشامت بمنمو ذيشا متم عبدم فعو امتم وبعرم». ومعناها: «من أنس (بشر) وإبل وثيران تشتري. ومن يشتري عبداً أو أمة أو بعراً»[1].

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في موضع معين، إنما كانت تعقد في مواضع مختلفة متعددة من جزيرة العرب. وقد خصصت في الغالب بامتيار الأعراب وبشراء ما عندهم من سلع فائضة عليهم. ولا يستبعد بالطبع ورود التجار الأجانب إليها من غير العرب، فقد كان الروم مثلاً يتوغلون إلى مسافات بعيدة في هذه الأرضين الشاسعة للبيع والشراء.

وبحكم ورود أناس إلى هذه الأسواق لا يسهم الاجتماع والاتصال بهم في الأوقات الأخرى، فقد قصدها أناس من أماكن بعيدة بحثاً عن طلب أو ترويجاً لرأي، فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير في بعض أفرادها لإدخالهم في دينهم. وفي كتب السير: أن الرسول نفسه كان يخرج في المواسم، لعرض نفسه على القبائل، ولهدايتهم إلى الإسلام.

ومن أشهر أسواق العرب عند ظهور الإسلام: (سوق دومة الجندل)، و(سوق هجر)، و(سوق عمان)، و(سوق المشقر)، و(سوق عدن أبين)، و(سوق صنعاء)، و(سوق حضرموت)، و(سوق ذي المجاز) و(سوق مجنة)، و(سوق عكاظ)، و(سوق حباشة)، و(سوق عثر)، وأسواق محلية أخرى تأتيها القبائل والعشائر للامتيار، وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاثة عشر سوقاً، وأولها قياماً (دومة الجندل)[2]. وقد رتب العرب لها مواعيد تنتهي بهم إلى الحج، يقيمون عكاظ من أول العقدة إلى أن يوافيهم العشرون منه، فينتقلون إلى مجنة حتى يتم شهر ذي القعدة،

١- جواد علي: ٣٦٨/٧.

٢- المصدر نفسه، ٣٧١.

فإذا أهلَّ الحجة توافوا على ذي المجاز إلى يوم التروية وهو ثامن الحجة، حيث يخرجون منها إلى عرفة، وهنا تتوقف تجارتهم تقديساً لأيام الحج في عرفة ومنى، وما زالوا على تحرجهم هذا حتى الإسلام، فأباح لهم التجارة في الحج بنزول الآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ . . . ﴾[1]

وأشهر الأسواق المتقدمة وأعرقها سوق عكاظ، وهي سوق تجارة وسوق سياسة، وسوق أدب، فيها كان يخطب كل خطيب مصقع، وفيها علقت القائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل على ما يذكره أهل الأخبار. وكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب. وكانت تقوم للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر. ولم تكن فيها عشور ولاخفارة.

وذكر أن عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقوم سوق العرب. وقيل عكاظ ماء ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له (الفنق)، كانت موسماً من مواسم الجاهلية. تقوم من هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً، وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون، أي يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، يقيمون على ذلك شهراً، يتبايعون ثم يتفرقون فلماء جاء الإسلام هدم ذلك.

ويعرض للبيع والشراء في سوق عكاظ وفي الأسواق الأخرى كل أنواع البضاعات، من أدم ومن حبوب وأقمشة إلى بضاعة حية ناطقة هي الإنسان والحيوان، حيث يعرض الرقيق في السوق. وقد اشتهرت سوق عكاظ بأديمها حتى عرف بين تجار الأديم بـ (الأديم العكاظي) مع أنه لم يكن من حاصل عكاظ، بل كان يورد إلى السوق من مختلف الأنحاء[2].

يقول المرزوقي عن سوق عكاظ: «فلما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يروا أنه حضر مثله في سائر السنين. فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر ونقد، وابتاعوا أمتعة مصر والعراق والشام».

١- سورة البقرة: الآية ١٩٨.

٢- جواد علي: ٣٧٩/٧.

وكانت عكاظ في الواقع معرضاً عاماً للجزيرة العربية: فيها عرض لتجارات جميع الأقطار وعرض للبيوع وعرض للعادات وللأديان واللغات، والآداب والسياسة. ومنها سوق ذي المجاز وهي تلي عكاظ في الشأن ويجري فيها ما يجري في هذه من تبايع وتناشد وفداء أسرى وطلب ثأر[1].

اتخذ العرب من هذه الأسواق منتديات أدبية يتم فيها تطارح الشعر وإجازته ونقده وتقويمه على أيدي كبار الشعراء كنابغة وزهير، اللذين كانا يجلسان تحت قباب مميزة من أدم يسمعون الشعر ويفاضلون بين الشعراء. وكما اتخذ العرب من السوق مهرجاناً أدبياً وثقافياً، فقد كانت السوق أشبه بمحطة إعلامية وإعلانية ذات شأن كبير. فقد كانت الألوية المختلفة - وهي رايات اتخذها العرب - كل راية وكل لون للدلالة على موقف ما مختلف عن الآخر من القيم السائدة أو ارتكاب أو الأحجام عن ارتكاب فعل ما، له تأثير في مجموعة الأسس الاجتماعية والأخلاقية في الجماعات والقبائل المختلفة. هذه الألوية كانت ترفع، مثل لواء (الغدرة) لمن حنث بوعده أو خان حليفاً أو خذل ولياً[2]. يقول الحادرة لصاحبته سميّة:

أسُميَّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ رُفع اللواء لنا بها في مجمع

ومثلما رفعت ألوية التحالف والموالاة والإجارة والخلع وإثبات الأنساب، كذلك قام السوق بوظيفة إعلانية لا تقل خطراً. ذلك أنه طبقاً للسائد في الأعراف القبلية، فإن إنجاب البنات كان يمثل مشكلة عند الزواج إذا لم يكن الأب شريفاً غنياً ينتمي إلى الشرائح القبلية العليا. ولذا فعندما واجه المحلق في قصته الشهيرة مأزق تزويج ثمان من الفتيات، قام المحلق باستضافة الأعشى حتى دفعه إلى مديحه وبناته. فلم يحل الحول حتى كن جميعاً قد تزوجن من سادة القبائل. يقول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة على ضوء نار في يقاع مؤلق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

ولا يخفى أن مثل هذا الاجتماع العام حالة من أحوال الحضارة ومحطة من محطات المدنية، ووسيلة من وسائل التفاهم اللغوي والتقارب بين اللهجات العربية.

١- سعيد الأفغاني، أسواق العرب، دمشق ١٩٣٧، ص ٢٤١-٢٤٢.

٢- ثناء أنس الوجود، رؤية العالم عند الجاهليين، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٢-١٤.

وبالإضافة إلى الدور الأدبي الذي قدمته الأسواق، لا ننسى الدور السياسي إذ تحولت إلى مجتمعات تعقد فيها العهود والاتفاقات بين القبائل، ولربما كانت الغاية وجود أكبر عدد من الناس شهوداً على ذلك.

ويتفرع عن سياسة القبيلة الحكم في الخصومات الفردية يجريه حكام مهيبون، كما يجري التبني والخلع أمام الناس كافة لجرائم ارتكبوها، وهي ساحات محاكم، يجلس فيها المتخاصمون للاستماع إلى قرار حاكم مهاب، اتفقوا على تحكيمه في نزاعهم. وقد كانت الحكومة في هذه السوق إلى (بني تميم)، وكان آخر من حكم منهم فيها الأقرع بن حابس التميمي.

وإذا وقعت في هذه الأسواق خصومات في مثل اختلاف في شعر أو اختلاف في تجارة، فهناك حكام يلجأ المتخاصمون إليهم للنظر في خصوماتهم وللنظر في كل خصومات أخرى قد تقع على الحاضرين. فيقوم هؤلاء الحكام بفض ذلك النزاع[1].

وبالإضافة إلى كل ما ذكرنا من دور تجاري وديني وسياسي فهناك دور فني حيث كانت تلك الأسواق تضم أحياناً متنزهات تغني فيها القيان، كما في سوق بدر. ولا عجب فالشعر رفيق الغناء منذ مهد الطفولة، ومن الطبيعي أن يتوافى المغنون والشعراء في الأسواق.

أما من حيث التعامل فلا شك أن الجمل كان يقوم لدى البدو من العرب مقام العملة. فكانت الأشياء تقوم بنسبتها إلى الإبل، كما كانت المهور والديات والفدى تدفع في صورة عدد من الإبل.

وفي المجتمعات البدوية التي تقتني الشياه والماعز ولا تقتني الإبل إلا في أعداد ضئيلة كانت الشياه والماعز تحل محل الإبل في وظائفها المختلفة. وفي المجتمعات الزراعية تحتفظ قطعان الحيوانات بقدر من أهميتها الاقتصادية والاجتماعية. ومع ذلك فقد استخدمت المنتجات الزراعية في بعض الأغراض التي استخدمت فيها قطعان الحيوانات لا سيما بوصفها وسيلة لدفع المهور والديات.

غير أن وجود بعض الحضارات على مشارف الجزيرة العربية وهي حضارات عرفت النقود كوسيلة للتعامل، ونشوء علاقات تجارية بين القبائل الرعوية وشعوب هذه

١- جواد علي: ٧/٣٨٣-٣٨٤.

الحضارات أفضى إلى استخدام العرب للنقود. ولم تكن للعرب في هذه البقعة من الجزيرة العربية نقود خاصة يستخدمونها في معاملاتهم. ولهاذ عمدوا إلى الاستعانة بنقود الشعوب المجاورة. فتعاملوا بالدرهم الفضي الساساني، والدينار الذهبي البيزنطي، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بنقود يمنية (حميرية)، وهي نقود غير مسكوكة، بل قطع من الذهب الخام «المستورد من إفريقيا أو المستخرج من مجاري الأنهار في اليمن. كما استعملوا قطعاً من معدن الفضة الخام. وهذا النوع من النقود غير المسكوكة كان يجري التبادل به تبعاً لمقادير وزن القطع المتداولة منه»[1].

١- د. حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربة الإسلامية، ج١، دار الفارابي بيروت، ١٩٨١، ص ٢٠٥.